إشكاليّة المصطلح بين النّظريّة والتّطبيق

نور الهدى لوشن*

تتداخل تيارات الدّرس وزوايا الرؤية، وتبرز قضية المصطلح، وإن كان القدماء اصطلحوا على "ألا مشاحة في المصطلح" فإن واقعنا اليوم أفرز مشاحات كثيرة وكبيرة.

إن المصطلح أداة ووسيلة لغوية عامّة تخترق مضامير الحياة بمختلف دروبها، وتكتسب طابع مجالها المحدّد كلما اختصت بحقل من حقول المعرفة، وقد طُوّقت المصطلحات بشرط مهم وضروري يتمثل في تحديد مفهومات المصطلحات قبل الخوض في أي موضوع، وهذا الشرط هو الذي يُكسبها مشروعية البحث العلمي السليم، ويُعدّ شرطاً مسبقاً في البحث والدّرس في حقول المعرفة بشتى ضروبها.

* أستاذة بقسم اللغة العربية، جامعة الشارقة.

فلكي نضمن الوصول إلى نتائج إيجابية علينا تحديد معاني الألفاظ والاصطلاحات؛ لأن هذا التحديد هو المنطلق الأول، والمنهج السليم لتحقيق الأهداف المتوخاة من بحوثنا.

ترى هل حقق الباحثون هذا الشرط في المصطلحات المتداولة؟ على الرغم من المؤتمرات، والندوات، والبحوث، والمقالات والكتب التي تتصدى لهذه الإشكالية؛ بالإضافة إلى جمود المجامع اللغوية ـــ في المشرق والمغرب ـــ التي تبحث وتنقب، وتخطط وترسم للخروج من طوق هذه الإشكالية إلا أنها تظل محفوفة بمخاطر اختلاف وجهات النظر وتباين التخصصات والثقافات وتنوّع الروافد التي ينهل منها كل باحث ودارس. وفي اعتقادي هذه المعطيات جعلت إشكالية المصطلح مشكلة حقيقية، أفرزت أزمة نجم عنها زخم من المصطلحات لا يعرف حدوداً، ولا قيود تثنيه طالما أنه يمتلك حق التحليق في أرجاء هذا الفضاء اللانهائي.

من خلال هذه المقتضيات، وفي ضوء هذا الطرح تبرز الحاجة إلى تناول هذا الموضوع مكتفية باختيار نماذج من النحو واللغة والبلاغة والنقد على سبيل المثال لا الحصر.

كلمة (المصطلح) في اللغة العربية مصدر ميمي للفعل (اصطلح) من المادة (صلح). وقد حدّدت المعجمات[1] العربية دلالة هذه المادة بأنها ضد الفساد.

ودلت النصوص العربية على أن كلمات هذه المادة تعني ـــ أيضاً ـــ الاتفاق، وبين المعنيين تقارب دلالي فاصطلاح الفساد بين القوم لا يتم إلا باتفاقهم .

أما الفعل (اصطلح) فدلالته مرادفة للفعل (اتفق)، وقد ورد ذلك في معجمات شاملة منها: لسان العرب وتاج العروس وغيرها...

يستنتج أن كلمة المصطلح تحمل دلالتين:

---

[1] الجوهري، **صحاح اللغة وتاج العربية** (القاهرة، ١٩٥٦م) مادة صلح، وانظر: محمود فهمي حجازي، **الأسس اللغوية لعلم المصطلح** (د.م: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع) ص٧.

- الدلالة الأولى دلالة لغوية وهي مأخوذة من أصل المادة (صلح)، قال الأزهري: «الصلح: تصالح القوم بينهم، والصلاح نقيض الفساد، والإصلاح نقيض الإفساد، وتصالح القوم بينهم، وتصالح القوم واصالحوا بمعنى واحد».[٢]

- أما الدّلالة الثانية، فهي الدّلالة العلمية (الاصطلاحية) وتعني: اتفاق جماعة على أمر مخصوص.[٣]

وهذا الاتفاق والتواطؤ إن تم بين جماعة المحدثين انبثق عنه مصطلح في الحديث، وإن قام بين جماعة الفقهاء على مسائل في الفقه نتج عنه مصطلح في الفقه، والأمر نفسه إذا اتفقت جماعة من النحويين، وعلى هذا النمط تسير باقي العلوم.

لم يرد مصدرا (اصطلاح) و (مصطلح) في القرآن الكريم أو في الحديث الشريف أو في المعجمات العربية العامّة.

ومع بزوغ فجر الحضارة الإسلامية بشتى علومها مُكّن لدلالة كلمة (اصطلاح) لتدل على الكلمات المتفق على استخدامها بين أصحاب التخصص الواحد للتعبير عن المفاهيم العلمية لذلك التخصص فانتشرت الكلمة بثوب الدّلالة الجديدة المحدّدة، فظهر «مصطلح الحديث» ولاح اصطلاح النحويين واللغويين.

"...وثمة مؤلفون آخرون عبروا عن المصطلحات بلفظ (كلمات) فقد سمّى الرّازي أحمد بن حمدان كتابه (الزينة في الكلمات الإسلامية) وأفاد مؤلفون آخرون في التعبير عن المصطلحات بكلمة (ألفاظ) على نحو ما نجد في عنوان كتاب (المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين) لعلي بن يوسف الآمدي»؛[٤] إلا أن جلّ الباحثين المتأخرين والمحدثين يفضلون كلمتي (اصطلاح) و (مصطلح)، ووظّفت هذه الكلمة

---

[٢] الأزهري، **تهذيب اللغة**، مادة (صلح)، وانظر: ابن منظور، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، د. ت) مادة (صلح).

[٣] **معجم متن اللغة**، ج٣، ص٤٧٨.

[٤] **الأسس اللغوية لعلم المصطلح**، ص٨.

عنواناً لأكبر معجم للمصطلحات في الحضارة الإسلامية، وهو معجم التهانوي الموسوم بـــ (كشاف اصطلاحات الفنون).

أما في اللغات الأوربية فالكلمات تكاد تكون واحدة من حيث النطق والإملاء وتدل على أية كلمة أو تركيب يعبّر عن مفهوم أو عن فكرة.

وترجع الكلمات في دلالتها إلى الأصلين اليوناني واللاتيني «فلهذه الكلمة في اللغات الأوربية اشتقاق مزدوج، فثمة تأصيل يوناني وتأصيل لاتيني، في اللغة اليونانية كلمتان Terma و Termon، دلت الأولى في مجال الألعاب الرياضية على الهدف الذي تعدو إليه الخيل والعلامة التي توضح مدى رمية القرص، وتدل كذلك على أعلى نقطة يصل إليها اللاعب. وهذه الدّلالات تغيرت فأصبحت الكلمة –أيضاً – تدل على النهاية مادية كانت أو معنوية.

وفي اللغة اللاتينية الكلمتان Term و Terminus ثم كلمة Termo الدخيلة من اليونانية. تدل هذه الكلمات اللاتينية على الحجر الذي يميّز حدود منطقة، وتدل – أيضاً– على النهاية أو الطرف البعيد أو الهدف. وقد استخدمت كلمة Terminus على مدى قرون بمعنى حد الحقل، وهو استخدام مادي؛ وبمعنى الحد المنطقي وهو استخدام معنوي. "وهكذا تحوّلت دلالة هذه الكلمات من الدّلالة المادية في اللاتينية إلى الدّلالة المعنوية الاصطلاحية".[٥]

أما اهتمام المعجمات الأوربية بكلمة (Term) فلم تبرز إلاّ مع تجلي علم اللغة التطبيقي وتبوّء علم المصطلح مكانه ضمن فروع هذا العلم.

ففي سنة ١٩٥١م جاء في معجم (ماروز) أن اللفظ يرادف في الاستخدام العام لفظ (Mot) أي كلمة.[٦]

---

[٥] **الأسس اللغوية لعلم المصطلح**، ص١٠.

[6] J. Marouzeau, *lexique de terminologie linguistique*,(paris:1951) p288.

وأقدم تعريف أوربي معتمد لهذه الكلمة هو: «المصطلح كلمة لها في اللغة المتخصصة معنى محدّد وصيغة محدّدة، وعندما يظهر في اللغة العادية يشعر المرء أن هذه الكلمة تنتمي إلى مجال محدّد».[7]

وجاء في معجم ويستر أن المصطلح هو «كلمة من مجموعة كلمات ذات معاني محدّدة ودقيقة، والمصطلح الفنيّ هو كلمة من مجموعة كلمات خاصة بمعان محدّدة خاصة بموضوع محدّد».[8]

ويُجمع المتخصصون في علم المصطلح على أن أفضل تعريف أوربي للمصطلح هو: «الكلمة الاصطلاحية أو العبارة الاصطلاحية مفهوم مفرد أو عبارة مركبة استقر معناها أو بالأحرى استخدامها وحدّد بوضوح، هو تعبير خاص ضيق في دلالته المتخصصة، وواضح إلى أقصى درجة ممكنة، وله ما يقابله في اللغات الأخرى، ويرد دائماً في سياق النظام الخاص بمصطلحات فرع محدّد، فيتحقق بذلك وضوحه الضروري».[9]

ويمكننا أن نخرج من دائرة التعريفات بتعريف: المصطلح «هو مجموعة الكلمات والعبارات الاصطلاحية المتصلة بفرع من فروع المعرفة أو بفن ما».[10]

فكلمة (الاصطلاح) إذن تعني (الاتفاق). وهذا الاتفاق بين العلماء على استعمال ألفاظ فنية معينة في التعبير عن الأفكار والمعاني في مختلف المجالات.

و«الاصطلاح يجعل للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها اللغوية، أو الأصلية، فالسيارة في اللغة القافلة، والقوم يسيرون، وهي في اصطلاح الفلكيين: اسم لأحد الكواكب السيارة التي تسير حول الشمس، وفي الاصطلاح الحديث هي: الأتوموبيل.

---

[7] J. Vachek, *dictionnaire linguistique de l'ecole de prague*,(anvers19).

[8] *new webester dictionary of the English language,* Lexicon Publications inc., (Danbury, USA,1972), (term).

[9] Josette Rey, *lexique semiotique*, (Paris,1979). (terme).

[10] مجدي وهبة، **معجم مصطلحات الأدب** (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٤) Term.

والمصطلحات لا توضح ارتجالاً، ولا بد في كل مصطلح من وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة كبيرة كانت أو صغيرة بين مدلوله اللغوي، ومدلوله الاصطلاحي».[١١]

ويمكننا أن نطرق أبواب بعض العلوم للوقوف على هذه الوظيفة (المصطلح).

علم النحو:

إن معرفة النحو رهينة بمعرفة مصطلحاته، ولو عدنا إلى مفهوم المصطلح النحوي لوجدنا أن كلمة النحو نفسها شهدت هذا الانتقال من المعنى اللغوي إلى المعنى العلمي المجرد، وهي مثل غيرهما من الألفاظ والتعبيرات التي اتخذت مدلولها العلمي بعد أن ظلت طويلاً تُعرف بمعناها اللغوي. (فالإعراب) مثلاً كان يدل على معانٍ كثيرة، وأصبح يعني اختلاف أواخر الكلم، وكذلك (النحو) الذي أصبح بمعنى العلم بأصول يُعرف بها أحوال الكلم إعراباً وبناء...إلخ.[١٢]

والنحو في اللغة يعني القصد والطريق، تقول نحاه ينحوه وانتحاه. قال الأزهري: «قال الليث: النحو القصد نحو الشيء، نحوت نحو فلان إذا قصدت قصده، قال: وبلغنا أن أبا الأسود وضع وجوه العربية وقال للناس: انحوا نحوه فسمي نحوا...»[١٣] هذا في اللغة، أما في الاصطلاح: «إنما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع، والتحقير، والتكبير، والإضافة، والنسب. وهو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحواً، كقولك: قصدت قصداً، ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم».[١٤]

---

[١١] الأمير مصطفى الشهابي، **المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث**، ص٦.

[١٢] عوض حمد القوزي، **المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري** (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٣م) ص٢١.

[١٣] **تهذيب اللغة**، ج٥، ص٢٥٢.

[١٤] ابن منظور، **لسان العرب مادة** (نحا)، وانظر: ابن جني، **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار (بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر، د.ت) ج١، ص٣٤.

«وهو علم يعرف به كيفية التركيب العربي صحةً وسقاماً، وكيفية ما يتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها فيه».[١٥]

قال ابن السكيت: «نحا نحوه ينحوه إذا قصده، ونحا الشيء ينحاه وينحوه إذا حرفه، ومنه سمي النحوي نحوياً لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب».[١٦]

وقد عبّر العرب عن النحو باصطلاحات هي: العربية، الكلام، اللحن، الإعراب، المجاز...

فالاصطلاح لفظ محدّد يستخدم للدلالة على ظاهرة معينة، وقد تتحدد الاصطلاحات للدّلالة على ظاهرة واحدة، فالحشو، والصلة، والإضافة، والزيادة، كلها اصطلاحات تُطلق على ما عُرف بحروف المعاني.

وبالنظر إلى ما اتفق عليه النحاة فإن الباحث لا يجده عند غيرهم بالمعاني الاصطلاحية نفسها التي يتداولها النحاة بينهم، يقول الأصمعي: «قلت لأعرابي: أتهمز إسرائيل؟ قال: إني إذاً لرجل سوء، قلت أفتجرّ فلسطين؟ قال: إني إذاً لقوي».[١٧] فالأصمعي يسأل عن أشياء اصطلاحية بعيدة جداً عن تفكير الأعرابي الذي لا يعرف للهمز معنى إلا العيب والشتم، ولا يعرف للجرّ معنى إلا السحب، أما ذووا الشأن فهم متفقون على أن الرفع علم الفاعلية والنصب علم المفعولية، والجر علم الإضافة، وذلك كله من اصطلاحات النحاة.[١٨]

---

[١٥] التهانوي، محمد علي الفاروقي، **كشاف اصطلاحات الفنون**، تحقيق لطفي عبد البديع (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة،١٩٦٣م) ج١، ص٣٣.

[١٦] **تهذيب اللغة**، ج٥، ص٢٥٢.

[١٧] ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، **عيون الأخبار** (القاهرة: دار الكتب المصرية،ط١، ١٩٢٨م) ج٢، ص ١٥٧، وينظر: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، تحقيق محمد سعيد العريان (بيروت: دار الفكر، ١٩٥٤م) ج٤، ص٥٧.

[١٨] الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، **الإيضاح في علل النحو**، تحقيق مازن المبارك، ص٦٩.

ومن المصطلحات الأخرى (الفقه) نجد الفقه كان بمعنى الفهم، ثم أصبح (الفقه: علم الدين خاصة) و (الطب): هو الحذق، يقال: رجل طب وطبيب إذا كان حاذقاً، ثم لزم الطبيب من عني بعلم الفلاسفة المؤدي إلى حفظ الصحة.

و(الشرف) أصله الارتفاع والنظر إلى الناس والأشياء من فوق أوْ مِنْ أعلى، ثم تجرّد المعنى أكثر فأكثر حتى أصبح الشرف هو مجموع صفات بعضها بالنسب وبعضها بالحسب تجعل الإنسان معنوياً في منزله ارفع من غيره، وقل مثل ذلك في كثير من الألفاظ الدينية كالصلاة وهي الدعاء، والزكاة بمعنى الطهارة، والحج بمعنى القصد، والصوم بمعنى الإمساك، وكلمة (الشرع) أصلها الاتجاه نحو الشرعة ... ومثل هذا من باب التطوّر اللغوي كثير.

وإذا ما وقفنا على عتبة البلاغة، طالعتنا حصيلة التحوّل الدّلالي التي تحتكم إلى صور تتركب فيما بينها على نمط المعادلات.[١٩]

- يتعامل المجاز مع التواتر فينتج النقل.
- ويقترن النقل مع اللفظ الفني فيوضع المصطلح.
- عندئذ يكون المجاز سبيل الرصيد اللغوي العام إلى الرصيد الخاص المعرفي الذي هو رصيد المصطلحات العلمية.
- فجانب النقل يمثل الوجه المكمل لجدلية الدّلالة اللغوية، ولئن عُدّ المجاز اغتصاباً للألفاظ من مضاربها بالاعتماد على القرائن ـــ هي عند البلاغيين القرينة أو العلاقة أو وجه الشبه ـــ فالمجاز يمد أمام ألفاظ اللغة جسوراً وقتية تتحوّل عليها من الوضع الأول إلى دلالة الوضع الطارئ وفي ديمومة هذه الحركة يستقر به اللفظ في الحقل الجديد فيقطع عليه طريق الرجوع، وعلى هذا النمط صيغت مصطلحات كل العلوم العربية

---

[١٩] عبد السلام المسدي، "النواميس اللغوية والظاهرة الاصطلاحية"، **مجلة الفكر العربي المعاصر**، ع:٣٠، صيف ١٩٨٤م، ص٢٣.

والإسلامية، ولو حاولنا العودة ببعض المصطلحات إلى استعمالها الأوّلي لتعذّر ذلك إلا بمجاز جديد.

وللمجاز شأن عظيم في اللغة بكل جوانبها الفنية منها والإبداعية، دون أن ننسى دور العامل النفسي في المجاز ولا عجب أن يصرّح ابن جنى بالحقيقة التقريرية في قوله: «اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة».[٢٠]

و«للغة مع ظاهرة المجاز شأن طريف ضمن صوغ المصطلحات: تتضافر الوظيفة المرجعية التي هي وظيفة الإبلاغ النفعي والتواصل العادي مع الوظيفة الإنشائية التي تكون في اللغة خادمة مخدومة في نفس الوقت، عندئذ تكتسب اللغة طاقة توليدية تضع بها المصطلح العلمي أو الفني فيكوّن لها ذلك ضرباً من الوظيفة المعرفية».[٢١]

وإذا كان المجاز يأتي على رأس وسائل نمو اللغة العربية وهي: التعريب والنحت والاشتقاق والمجاز. فإن بقية العناصر لا يُغفل دورها في المجال المصطلحي؛ إلا أن المقام لا يتسع لبسط الحديث عنها، فلو قلّبنا صفحة الاشتقاق نجد أنه السمة النوعية في الفصائل السامية ومفهومه يتصل اتصالاً مباشراً بقضية صوغ المصطلحات ونماء رصيد اللغات من الألفاظ إنه — لحق — ظاهرة حتمية الحضور في اللغة العربية؛ إلا أنه يمكننا أن ننتخب مصطلح التعريب لنطرق من خلاله باب النقد العربي المعاصر الذي برزت فيه قضية المصطلح منذ أن بدأ متابعة المناهج الجديدة في النقد الغربي، وبخاصة البنيوية والأسلوبية وما تفرع منها. فبات المصطلح العربي المبتكر نادراً جداً، طالما أن مصادر العرب غريبة المنشأ تستقي ـــ في معظمها ـــ من مصادر أجنبية.

فبازدياد وسائل الاتصال وانتشار معرفة اللغات الأجنبية والشعور بعالمية المعرفة جعل المثقف العربي يقف موقف المتلقي، وبات لزاماً عليه — في خضم هذه التحوّلات

---

[٢٠] ابن جني، **الخصائص**، ج٢، ص٤٤٧.

[٢١] **النواميس اللغوية**، ص٢٥.

الفكرية والعلمية ـــ أن يتابع هذا الكم من المصطلحات بالتعريب والنقل والترجمة، فبدأ القارئ يواجه هذا السيل من المصطلحات التي «يختلف النقاد في ترجمتها أو تعريبها، أو يتفقون على بعضها وإن ظل معناها غير واضح أو محدّد لدى قارئ النص الأدبي الذي يتلمس في النقد عوناً على القراءة الواعية»[٢٢] ... لا أن يدخل فيما يثير الحيرة والتشتت، ويستحيل العمل المنشود – على يد الناقد- إلى ما يشبه الكيان الغيبي المغلق بالطلاسم والأسرار، فيجابه القارئ بمصطلحات مثل: متأمثل، ومؤنسن، ومتمفصل، ومتراح، ومنحرف، ومتناص!؟ لا شك أن الناقد يودّ أن ينقل إلى القارئ نظريته بأجلى ما يمكن من الوضوح، ولا سبيل إلى بلوغ هذه الغاية إلا بوجود قدر مشترك بينه وبين القارئ في ألفاظ اللغة ودلالاتها وأساليبها، لا أن تتحوّل العملية إلى عوالم مغلقة لا يُدْرك فحواها.

ويرجع الغموض وبعض الاختلاف إلى مسوّغ عدم استقرار حال نقدنا العربي الحديث، وفيما يلي أسوق مفهوم (الانزياح) لنتابع معاً كيف تجاذبته طائفة المصطلحات: الانزياح L'ecart لفاليري، التجاوز L'abus لفاليري، الانحراف La diviation لسبيتزر، الاختلال La distorsion لويلك وواين، الإطاحة La Subversion لباتيار، المخالفة L'infraction لتيري، الشناعة Le Scandale لبارت، الانتهاك Le Viol لكوهن، خرق السنن La Violation des normes لتودوروف، اللحن L'incorrection لتودوروف، العصيان La Transgression، التحريف L'alteration لجماعة مو.[٢٣]

---

[٢٢] عبد القادر القط، "قضية المصطلح في مناهج النقد الأدبي الحديث"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ع:٨، صيف١٩٩٤م، ص٩٩.

[٢٣] عبد السلام المسدي، **الأسلوبية والأسلوب**، (القاهرة: دار سعاد الصباح، ط٣، ١٩٩٣م) ص١٠٠-١٠١.

لاشك أن هذه الدوامة تترك الباحث في حيرة من أمره، ومن المؤكد أن هذه المصطلحات ليست في مستوى واحد دلالة على المفهوم.

ووضع اللسانيات (علم اللغة) ليس أحسن شأناً من وضع النقد، إذ حمل على كاهله ضروب التشتت الاصطلاحي بين العرب على اختلاف مشاربهم، فالمصطلح اللساني إلى الاستقصاء والتخالف أقرب منه إلى التسوية والتماثل، «ولعل اللسانيات ـــ في أيامنا ـــ تعيش أكبر مخاض مصطلحي إذ تتأرجح ألفاظها في التصنيف العربي بين منزلة التقبل ومرتبة التفجير ومدارج الصوغ الكلّي بالتجريد والاستفهام، فمن الفونيتيك إلى علم صناعة الأصوات الحديث، إلى الصوتيات، ومن الليكسوغرافيا إلى علم صناعة المعجم إلى العجمية... ومن الستيليستيك إلى علم الأساليب الأدبية إلى الأسلوبية كلها تقتفي ناموس الترقي الاصطلاحي تقبل فتفجير فتجريد، وعلى نمطها نقيس تقبل (السنكرونية) ثم تفجر اللفظ إلى المنهج المتزامن...».[٢٤]

لم تختلف السبل بين الاصطلاحات العربية اختلافاً في هذا العلم، ومما زاد الأمر تفاقماً دوران المعرفة اللغوية بين متصوّرات مستحدثة ومفاهيم متوارثة، ولم ينج مصطلح تسمية العلم نفسه من هذه الاختلافات، لقد تجاذبته مصطلحات عدة:

فقه اللغة، علم اللغة، علم اللغة الحديث، علم اللغة العام، علم اللغة العام الحديث، علم فقه اللغة، علم اللغات، علم اللغات العام، علوم اللغة، علم اللسان، علم اللسان البشري، علم اللسانة، الدراسات اللغوية الحديثة، النظر اللغوي الحديث، علم اللغويات الحديث، الدراسات اللغوية المعاصرة، اللغويات الجديدة، اللغويات، الألسنية، اللانغويستيك، الألسنيات، اللّسْنيات، اللسانيات.

ومن المصطلحات التي أحاطتها هالة الغموض وتباينت فيها الآراء مصطلح (الفونيم)، لقد فُهم على أنه الأصوات المختلفة التي يُعبّر عنها في الكتابة برمز واحد،

---

[٢٤] عبد السلام المسدي، **التفكير اللساني في الحضارة العربية** (الدار العربية للكتاب، ١٩٨٦م) ص٥٣.

ولا تُستخدم في اللغة للتفريق بين المعاني المختلفة يقول هذا الرأي: «.. ما يُطلق عليه الغربيون اسم "فونيم" Phoneme = وحدة صوتية / عائلة صوتية. وفي إمكاننا نحن أن نطلق عليه اسم "حرف" مقصوداً به الرّمز الكتابي، ونعمل بذلك على التفريق بين الاصطلاحين "صوت" و "حرف". فالصوت هو ذلك الذي نسمعه ونحسه، أما الحرف فهو ذلك الرّمز الكتابي الذي يُتخذ وسيلة منظورة للتعبير عن صوت معيّن، أو مجموعة من الأصوات لا يؤدي تبادلها في الكلمة إلى اختلاف المعنى».[٢٥]

يصل هذا الرأي إلى حكم أن الفونيم هو مجموعة الأصوات التي لايؤدي تبادلها في الكلمة إلى اختلاف المعنى. وهو مفهوم مغاير ومخالف لمفهوم الفونيم، قد نجد لهذا التعريف تخريجاً من خلال تقسيم العالم اللغوي "تروبتسكوي"[٢٦] (Trobtskoy) للمبادئ التي يمكن أن يُعتمد عليها في معرفة الفونيم؛ إلا أن جلّ الآراء إن لم أقل كل الآراء تُجمع في تعريفها للفونيم على أنه: أصغر وحدة صوتية يتغيّر بها معنى الكلمة إذا استبدلت بوحدة أخرى، وهو ذو سمات تمييزية.[٢٧]

فالفونيم وحدة صوتية وظيفية، والصوت إذا عوض صوتاً آخر و لم ينشأ عن ذلك تغير في المعنى لا يُسمى الصوت فونيما بل هو بدل منه وعوض عنه، ويسميه علماء الأصوات (ألوفون) (Allophone)، ومعناه صوت آخر؛ إشارة إلى وجود هذا الصوت إلى جانب غيره داخل الفونيم، فهو بديلة نسقية.[٢٨]

---

[٢٥] رمضان عبد التواب، **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي** (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٨٢م) ص٨٣-٨٤.

[26] Troubzkoy, *principes de phonologie*,p37.

وينظر: نورالهدى لوشن، **مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي** (الإسكندرية، ط٢، ٢٠٠٢م) ص١٢٣

وينظر: أحمد حساني، **مباحث في اللسانيات** (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٤م) ص٩١.

[27] J. Pytard, *linguistique et enseignement du français* (Paris: Librairie Larousse,1970) pp36-38.

وينظر: نورالهدى لوشن، **مباحث في علم اللغة**، ص١٢٢-١٢٥.

[28] Jean Dubois, *dictionnaire de linguistique*(Paris: Librairie Larousse, 1972), p372; *phonologie et phonétique*, p338.

معنى ذلك أن الفونيم صوت، وليس كل صوت (فونيم)، ... والوظيفة التمييزية التي تؤديها الوحدة الصوتية ليست وظيفة ذاتية تكمن في طبيعة الصوت نفسه، وإنما هي نتيجة لما تصطلح عليه المجموعة اللسانية، فالفونيمات ـــ وهي تفرق بين المعاني ـــ لا تتبع في ذلك رسما من الخواص الدّاخلية للغات، بل عمدها الاصطلاح ومجرد الاتفاق؛ ولذلك اختلفت الوظائف التي تقوم بها الأصوات من لغة إلى لغة، فالراء والغين في اللغة العربية فونيمان، ولكنهما في اللغة الفرنسية لا يفرقان بين المعاني وإن اختلفت صفاتهما النطقية.

ونعود إلى التأكيد على أن الفونيم هو أصغر وحدة صوتية تتكوّن منها الكلمة، ويُعد العنصر الأساس في النظام التعبيري، والفونيمات ملامح للأصوات وأشكال الكلام، وهي جزء من النظام الخاص باللغة المحدّدة.

والفونيمات التي تخص كل لغة تختلف فيما بينها. والفونيم ليس وقفاً على الحروف (الأصوات) ولكنه يوجد في نهايات الجمل، وذلك كالاستفهام والتعجب مثلاً. وقد يظهر الفونيم في العربية لا على شكل حرف وإنما على شكل حركة، فكلمة عِلْم اسم، وتختلف بدورها عن كلمة عَلَمٌ، وتختلف عن الفعل عَلِمَ – المبني للمعلوم – عن عُلِمَ المبني للمجهول.

فالفتحة "فونيم"، والضمة "فونيم"، والكسرة "فونيم".

أما صالح القرمادي فجاءت ترجمته لمصطلح "الفونيم" بأسلوب مبتكر لم يسبقه إليه غيره، لقد مزج بين الاشتقاق والتعريب والتوليد المعنوي في ترجمته إذ قابل مصطلح "فونيم" بلفظ (صوت) ثم أضاف لفظاً آخر وضعه بين قوسين ووضع أمامه علامة الاستفهام (صوتم؟) وقد اعتمد فيها الاشتقاق؛ لأنها من مادة (صوت) العربية، وتعتمد التوليد المعنوي لأنها تحويل للدلالة الأصلية، وهي صيغة تعتمد الدّخيل المعرب، فيها الميم التي اقتبست من اللفظ الأجنبي، وفيها القالب الصرفي، الذي وُضع وضعاً

موازياً إذ هو على ميزان (فَعْلَمْ) مما لا تعرفه لغة العرب ولكن تستسيغه لتجانسه مع (مَفْعَل).[٢٩]

و لم يسلم مصطلح (الدلالة)[٣٠] من تداخل المفاهيم لدى عدد غير قليل؛ فهذا العلم يعكف على دراسة المعنى، ويُعدّ جمّاع الدّراسات الصوتية والنحوية، والمعجمية، والأسلوبية فوظيفة اللغة الجوهرية تكمن في الإبلاغ والتبليغ، أو قل في التعبير عن المقاصد، فهي وظيفة دلالية أساساً، وإذا كان الجانب الصوتي، أو النحوي، أو المعجمي أو الأسلوبي للغة لا يتناوله بالدراسة غير المختصين فيه، فإن الجانب الدّلالي يهم أصحاب اللغة جميعاً على اختلاف اختصاصاتهم ومستوياتهم، وعلى الرّغم من استقرار هذا العلم (علم الدّلالة) واعتماده فرعاً من أهم فروع علم اللغة؛ إلا أن اللبس لا زال يحوّم في سماء بعض الدّارسين والباحثين إلى أن ألقى ببعضهم في غياهب القول: «بأن علم الدّلالة هو من البلاغة وليس من علم اللغة».

ومن المصطلحات التي لم يشهد مفهومها كبير اختلاف بين العلماء، مصطلح (الحقول الدّلالية)؛ إذ تُجمع جل الآراء على تعريفها بـــ «الحقل الدّلالي أو الحقل المعجمي هو مجموعة من الكلمات التي ترتبط دلالاتها وتوضع تحت لفظ عام يجمعها مثل ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية».[٣١]

فالحقل الدّلالي هو مجموعة من المفاهيم تنبني على علائق لسانية مشتركة، ويمكن أن تكوّن بنية من بنى النظام اللساني، كحقل الألوان، وحقل القرابة العائلية، وحقل مفهوم الزمان، وحقل مفهوم المكان وغيرها.[٣٢]

---

[٢٩] المسدي، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، ص٧٦.

[٣٠] أقصد هنا النظرة التقليدية العقيم.

[٣١] أحمد مختار عمر، **علم الدلالة** (بيروت: عالم الكتب، ط٥، ١٩٩٨م) ص٧٩.

[32] Georges Mounin, *clefs pour la linguistique* (Paris: editions seghers, 1968-1971), p160; Claude Germain, *la semantique fonctionnelle* (Paris:1980) p80.

إن المتأمل في تراث أسلافنا يجد أنهم بدأوا التفكير في هذا النوع من المفاهيم في وقت مبكّر جدّاً، لا يتجاوز القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

والشبه واضح بين معاجم الحقول الدّلالية الحديثة ومعاجم الموضوعات القديمة في اللغة العربية، كلاهما يقسم الأشياء إلى موضوعات، وكلاهما يعالج الكلمات تحت كل موضوع، وكلاهما بدأ بالتأليف الجزئي المتمثل في جمع الكلمات الخاصة بموضوع واحد ودراستها تحت عنوان واحد.

لقد ساق لنا اللغويون الأقدمون حقولاً دلالية مستنبطة من البيئة اللغوية على شكل معجمات خاصة تغطي مجالات مختلفة منها:

خلــق الإنسان: النضر بن شميل ٢٠٤هـــ، قطرب ٢٠٦هـــ، أبو عبيدة ٢١٠هـــ، الأصمعي ٢١٧هـــ، أبو حاتم السجستاني ٢٥٥هـــ.

الخيــل: أبو عبيدة الأصمعي.

الحشــرات : أبو عبيدة، كتاب (الحيات والعقارب). الأصمعي، كتاب (النحل والعسل)، أبو حاتم السجستاني (كتاب الحشرات والجراد والنحل والعسل).[٣٣]

ومن الذين أولوا أهمية بالغة لهذا النوع من التصنيف للمداخل المعجمية في الدراسة التراثية الثعالبي (٤٣٠هـــ) في كتاب فقه اللغة، وابن سيده (٤٥٨هـــ) في كتابه المخصص، لقد أفردا قسماً كبيراً من كتابيهما المذكورين لحقول مختلفة.[٣٤]

فالمعاجم الحقلية التي تسمى عند القدماء بمعاجم الموضوعات تزخر برصيد ثري من الحقول الدّلالية التي تتسم بالدّقة المنهجية. وفي ظل توظيف المصطلح الجديد أُدخلت تعديلات تساير العصر وتحتوي ما جدّ في ميدان هذا الحقل المعرفي.

---

[٣٣] ينظر: ابن النديم، **الفهرست**، حققه وقدم له مصطفى الشويمي (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٤٠٦هـــ-١٩٨٥م) ص٥٣.

[٣٤] ينظر: **الفهرست**، ص٧٢؛ **مباحث في اللسانيات**، ص١٦٢.

يبدو أن المسؤولية الكبرى تقع على عاتق عالم اللغة أو عالم اللسان، فهو أحق الناس بإرساء ركائز التنظير في علم المصطلح بشمول، وهو الخبير الذي ينـــزّل الألفاظ منازلها.

«وإذا عالجنا قضية المصطلح من منطلق لساني نقدي رأينا أن كل مجموعة بشرية ترابطت لغوياً فتحولت إلى مجموعة ثقافية حضارية فإنها تواجه على الدّوام مدلولات جديدة عليها إما بحكم استحداث الأشياء أو بحكم اكتشافها... فضلاً عما صنعته المجامع العلمية المتعدّدة في الوطن العربي والتي لم تنشأ في منطلقها إلا لسدّ ذرائع المصطلحات، وقد طفحت هذه الأبحاث جميعها ـــ من لدن الأفراد ـــ ومن لدن المؤسسات.... ».[٣٥]

ومصطلحات العلم ـــ أياً كان ـــ إنما هي نظام من الدّوال مشتق من نظام دوال اللغة التي يتداوله بها أهله، فالثبت المصطلحي هو مجموعة الألفاظ التي حُولت عن دلالتها الأولى لتختص بها دلالات فنية تُدرك بسياقها العلمي، وليس ضروريا أن تنقطع تلك الألفاظ عن معانيها الأولية، بل كثيراً ما تظل دالة في الوقت نفسه على معناها العادي وعلى معناها العلمي بحسب سياقها في الاستعمال.[٣٦]

مما لا شك فيه أن المصطلح يؤدي وظيفة مهمة في مختلف ميادين الحياة، ولاستخدامه – بدقة لما هو موضوع له – دور كبير في تحقيق الوظيفة المنوطة به، وفوق ذلك كله هو تحقيق الدقة في صياغة المصطلح، ويتحقق ذلك باختيار اللفظة المناسبة معجمياً ودلالياً، وأهم شروطها هو الوضوح. إذ ... «تُعدّ الدلالة المحدّدة الواضحة أهم السمات التي تميّز المصطلح عن باقي الكلمات في اللغة العامّة، فالمصطلح لا بدّ أن يكون بدلالة واضحة وواحدة داخل التخصص الواحد، على العكس من

---

[٣٥] المسدي، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، ص٢٥.

[36] Georges Mounin, *dictionnaire de linguistique*, (Paris: p.u.f, 1974) p371.

الكلمات الأخرى التي يتحدّد معناها عن طريق السياق، وتتعدد دلالات كل كلمة منها.

المصطلح محدّد الدّلالة، ويمكن أن يفهم معناه إذا ما ذُكر مفرداً، ولكن تعدد الدّلالة في الكلمات غير الاصطلاحية يجعل فهمها مرتبطاً بالسياق.

أما الكلمات التي لها استخدام في اللغة العامة ولها استخدام اصطلاحي فإنها تُدخل في الاستخدام مجالاً دلالياً جديداً، ويكون معناها ضيقاً وخاصاً فتكتسب في هذا المجال الجديد دلالة اصطلاحية محدّدة ومباشرة».[37]

وكلمات اللغة العادية لا تحمل البعد الذي يقوى المصطلح على حمله؛ إلا أن نمو الفكر وتطوّر المعارف، تولّد مصطلحات جديدة، بمقتضى الحاجة والاستعمال؛ إلا أن مشكلات جمة واجهت المصطلح، يتصدّرها عدم الاتفاق على الترجمة بالإضافة إلى الكم الهائل من المصطلحات، فكانت مصدر اضطراب وتشويش بدل أن تكون مفاتيح عون ووسائل توضيح.

ولعل سبل التمكين للمصطلح تتلخص في شرطين طرحهما أحد الباحثين[38] وهما:

١- تمثيل كل مفهوم أو شيء بمصطلح مستقل.

٢- عدم تمثيل المفهوم أو الشيء الواحد بأكثر من مصطلح واحد.

ولكن هذين الشرطين — ربما — لا يتحققان في كثير من المصطلحات «فثمة مصطلح واحد للدّلالة على أشياء عدة، وثمة أكثر من مصطلح للدّلالة على شيء واحد. ومردّ ذلك ومرجعه إلى تداخل فروع العلم والمعرفة، ثم إلى تعدّد واضعي المصطلح في الوطن العربي، واختلاف ثقافاتهم، ثم انقطاع ما بينهم بحيث لا يمكن أن يفيد السابق منهم اللاحق. ولعلّ شيئاً من إيثار العناد أن يكون من وراء هذا التعدد

---

[37] **الأسس اللغوية لعلم المصطلح**، ص١٢.

[38] ينظر: علي القاسمي، **مقدمة في علم المصطلح** (بغداد: ١٩٨٥م) ص٦٨.

والاختلاف، إذ أن كل فئة ـــ وهذا من دواهي الأمور ـــ تنطوي على شعور أنها أحق بأن تتبع، وأنها من ثمّ لا بدّ أن تبدع لنفسها مصطلحاً خاصاً بها، لا يهمها بعد ذلك أوافق هذا المصطلح الدّقة أم لم يوافق. وواضح أن ليس وراء مثل هذا الاختلاف كبير نفع للعلم، لأنه قد جاوز العلم منطقاً وغاية له».[٣٩]

وقد يتقلص المجهود من الفئة إلى الشخص الواحد فيجتهد الدّارس في إضفاء آرائه الخاصة على المصطلح الواحد ويتحيّز لتسميته ويدعو لها. ولعل في رأي (رولان بارت) الرّد الناجع على مثل هؤلاء، إذ يقول: «وسيكون من الادعاء تماماً، القول بأن الاقتراح أو الاشتغال الفردي في هذا الباب مدرك التوفيق، دون التقاء مع محاولات. وأعمل أخرى».[٤٠] معنى هذا أن الاصطلاح العربي لن يتم إلا بالتوافق العام، وبالمعجم المشترك، وكذا بالفهم العميق لشعب العلوم الإنسانية العديدة.

لو تأملنا المؤلفات التي خصّصت لهذه الإشكالية لأدركنا أن هذا الموضوع لم يُهمل في يوم من الأيام؛ غير أن اختلاط القضية اللغوية بالمعضلة الحضارية مهّد الطريق لقضية المصطلح لتغدو عندنا وعند غيرنا مشكلة من أكبر المشكلات وتفاقمت مع الزمن لتصبح أزمة حقيقية؟ وأزمتنا — نحن العرب — بالذّات تنبع من عقدة الذّات. وقضية المصطلح لا يمكن أن تؤخذ فردية أو حزبية أو قطرية.

لقد حان الأوان أن نبتعد عن الخلاف، والتشكيك، والنظرة الفوقية، وإنفاق الجهد والمال في مشاريع مجهضة لا ولن ترى النور مادامت محفوفة بمخاطر الإغراق في الذّاتية، والقيام على الصراع واستئصال الآخر.

---

[٣٩] أحمد محمد ويس، "الانزياح وتعدد المصطلح"، **عالم الفكر**، مج:٢٥، ع: ٣، يناير/مارس ١٩٩٧م، ص٥٧-٥٨.

[٤٠] قراءة لرولان بارت، مغامرة الدال، تقديم وترجمة أحمد الديني، **الفكر العربي**، ع١٨-١٩، مركز الإنماء العربي، شباط/آذار، ١٩٨٢م، ص٨٣.

فعلى المؤسسات المعنية بالمصطلحات في الدّول العربية أن تخطط لعملها منعاً لتكرار الجهود وحرصاً على تكامل التخصصات واضعين نصب الأعين أن وضوح المصطلح يرتبط – في المقام الأول – بوضوح المفهوم الذي يدل عليه، وأن الكلمات لا تحمل البعد الذي يقوى المصطلح على حمله. وفوق هذا وذاك التخلي عن الصراع واستئصال الآخر.

وأن تسعى الجهات المعنية إلى تكوين هيأة عليا تقوم بالإشراف على المصطلحات الجديدة.

- غربلة المصطلحات؛ لأننا لا نفتقر إلى المصطلحات فنحن نعاني من تخمة مصطلحية ولكننا نحتاج إلى غربلة المصطلحات وتوحيدها.

- عقد ندوات دورية تناقش فيها المصطلحات الجديدة دون تعقيد أو تعصب.

- عقد ندوات ودورات للإشراف على نمط توحيد المصطلحات والبعد عن الطرائق التقليدية التي تتبعها بعض المؤسسات .

- أن نبتعد عن الخوف من المصطلحات الأجنبية.

وأن نسعى بعد ذلك كله إلى التيسير وعدم التشدد؛ لأن التشدد ليس في صالح اللغة.

وطالما سيطرنا على امتلاك ناصية علم المصطلح ـــ في ظل ما أسلفت ذكره ـــ ضمناً تجاوز عقبات الأداء، وإذا وعى الفكر العربي تمام الوعي ما لهذا العلم من أهمية بالغة انصاعت له مقاليد التحكّم ومُكّن له، وفاد منه وأفاد.

ولعلي ـــ في هذا المضمار ـــ بحاجة لأن أسوق استنتاجاً، وهو أن الفكر العربي لّما يتخلص من هيمنة الرؤية التراثية عليه، وهي رؤية ترى أن العلوم عند العرب قد اكتملت، وأن القدماء ما فرطوا فيها من شيء...؛ ولكن هذه الرؤية التراثية لم تمنع من ظهور رؤية جديدة أصيلة، لا ترى حرجاً في أن تعبر المكان لتنقل عن الغرب، أو

أن تعبر الزمان لتنشر عن الأقدمين من العرب ما دامت تقيم علاقة النقل للفكر الغربي الحديث والنشر للفكر العربي القديم على أسس جدلية خصبة، تطعّم القديم بالحديث لتمكّنه من أن يواكب العصر، وأن يُسْهم في بناء الشخصية العربية الحديثة، كما تضفي على الجديد طابع الأصالة وتمكّنه من أن يتضافر مع القديم لوضع فلسفة قوية، معاصرة، متميزة تجسّد الوحدة الجدلية بين العلم الحديث، وبين التراث العربي، وتعيد قراءة التراث لا لتهدمه؛ ولكن لتؤسسه تأسيساً يسمح بإبراز وطرح الجديد عبر إحياء القديم فيه.

وهكـــذا تتولد ديمومة الوجود وفعالية التأثير وإمكانية العطاء، ونسقط من جرّاها راية الأزمة بين النظرية والتطبيق.